﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان انقسام المشركين في شأن القرآن؛ شرع في بيان انقسام أهل الكتاب فيه

لمّا بيّن النّظم الكريم في الآيات السّابقة أنّ الّذين أُرسل إليهم القرآنُ انقسموا في التّصديق به إلى فريقيْن: فريق آمن بالله وهم المؤمنون، وفريق كفر وهم المشركون؛ ذكر هنا موقف أهل الكتاب، وبيَّن انقسامَهم في تلقّي القرآن إلى فريقيْن؛ فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به، وفريق آخر كفروا به وأعرضوا عنه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡرَحُونَ﴾: أصْلُ الفَرَحِ: انشراح الصَّدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيّة الدّنيويّة[2]، ويَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ، والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]. والمُفْرِحُ: الشَّيْء الَذي يُفْرِحُني[4]، ويأْتي بِمعنى الابْتِهاجِ والاسْتِبْشارِ، كقولكَ: فَرِحَ بالعيدِ: إذا ابْتَهَجَ بِقُدومِهِ، ومِن مَعانيه أيضًا: الحُبورُ، والجَذَلُ، والغِبْطَة، والارتياح، والاغتباط[5]، والمُراد بالفَرَحِ في الآية: شِدَّةُ السُّرورِ والابتهاجِ.

2) ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: أصلُ (حزب): أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فرح).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرح).
(5) ابن مالك، الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، ص: 118.

فَمِنْ ذلكَ: الحِزْبُ الجماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرآنِ(1)، والأَحْزابُ: كلُّ طائفةٍ هَواهُم واحدٌ، والحِزْبُ: النَّوْبةُ في وُرودِ الماء، والحِزْبُ: النَّصيبُ، يُقالُ: أَعْطِني حِزْبي مِن المالِ؛ أيْ: حَظّي ونَصيبي(2). والمقصود بالأحزاب في الآية: جَمْعُ حِزْبٍ، وهو اسْمٌ للجَماعَةِ الّذينَ هُم سَواءٌ في شَأْنٍ: مِن اعْتِقادٍ أو عَمَلٍ أو عادَةٍ، والمُرادُ بِهِم هنا الأَحْزاب الّذين أوتوا الكتابَ(3).

3) ﴿يُنكِرُ﴾: النّون والكاف والرّاءُ أَصْلٌ تدلُّ تصريفاتُها على خِلافِ المَعْرِفَةِ الّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعترِفْ به لِسانُهُ، والبابُ كُلُّهُ راجِعٌ إلى هذا، فالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، والنَّكراءُ: الأمرُ الصَّعْبُ الشَّديدُ، ونَكُرَ الأمرُ نَكارَةً(4). والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أَنْكَرْتُ حَقَّهُ؛ أيْ: جَحَدْتُهُ ونَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فَهوَ مُنْكَرٌ، والتَّنَكُّرُ: التَّنَقُّلُ مِنْ حالٍ تَسُرُّ إلى أُخْرَى تُكْرَهُ. والنَّكيرُ: اسم للإنكار الّذي يُعنى به التَّغيّر(5)، ولا يستَعْمل نَكِرَ في غابرٍ ولا أمْرٍ ولا نهيٍ ولا مصدر(6). والمقصود بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ.

4) ﴿بَعْضَهُۥ﴾: الباءُ والعينُ والضّادُ تدور اشتقاقاتُها على تَجْزِئَةِ الشَّيْءِ، وبَعْضُ كُلِّ شَيْءٍ: طائِفَةٌ مِنْه، سَواءٌ قَلَّتْ أوْ كَثُرَتْ، يُقالُ: بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ(7)، وضِدُّ التَّبْعيضِ: التَّجْميعُ والتَّوْحيدُ، والجَمْعُ: أبْعاضٌ(8)، يُقالُ: بَعَّضْتُ الشَّيْءَ أُبَعِّضُهُ تَبْعيضًا؛ أيْ: قَطَّعْتُهُ قِطَعًا، ويَأتي التَّبْعيضُ بِمَعْنى: التَّفْريقِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: أخَذوا مالَهُ فَبَعَّضوهُ؛ أيْ: فَرَّقوهُ(9)، والمقصود بلفظ (بعض) في الآية: القِطْعَةُ والجُزْءُ مِن الشَّيْءِ.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الخليل، العين: (نكر).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بعض).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

مكانة القرآن عند أهل الكتاب، ممّن عرف الحقّ واعترف به

بيَّن الحقُّ ﷻ في هذه الآية مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فبيَّن أنَّ الّذين أعطاهم التَّوراة والإنجيل من اليهود والنَّصارى، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيُّها الرَّسول الكريم، ثُمَّ آمنوا بك عند إرسالك رحمةً للعالمين؛ هؤلاء - الّذين تلك صفاتهم - يفرحون بما أُنزل إليكَ من قُرآن؛ لِما في كتبهم من الشَّواهد على صِدقه والبِشارة به، ولأنَّ ما فيه مِن هدايات وبراهين على صِدْقِكَ؛ يزيدهم إيمانًا على إيمانهم، ويقينًا على يقينهم، قل - يا أيُّها النَّبيُّ -: إنَّما أمَرَني الله بعِبادته وحدَه، وألّا أُشرِكَ به شيئًا، أدعو النّاسَ إلى طاعة الله سُبحانَهَ مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى الله مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾:

انتقالٌ من ذِكر المشركين، إلى بيان فضل المؤمنين من أهل الكتاب

افتتح النّظم الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ بالواو الاستئنافيّة، فالجملة بعده مستأنفةٌ؛ حيث انتقل من ذِكر أحوال المشركين من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: 30] إلى بيان فضل بعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن الكريم[2].

دلالة التّعبير بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعدّد المُراد بالموصول، واحتماله الخصوص والعموم، بحسب التّأويل

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الّذين آمنوا من أهل الكتاب بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ لأنّه أراد أُناسًا بأعيُنهم، فهم معهودون معروفون وهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/467، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/491.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

"المسلمون من أهلِ الكتابِ، كعبدِ اللّه ابنِ سَلام وكعبٍ وأضرابِهما ومَنْ آمن من النّصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجرانَ، وثمانيةٌ باليمن، واثنانَ وثلاثون بالحبشة"[1]، ويجوز أن يكون المُراد: الّذين آمنوا بك، ويُحمل هذا على العموم، والمُراد بهم: الصَّحابة رضوان اللّه عليهم الّذين آمنوا بالرَّسول ﷺ[2].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإيتاء دون الإعطاء، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لِما في الإيتاء من سهولة التّناول والمجيء؛ فهو أدلّ على الامتنانِ، والعطاء من العَطْو: وهو التّناول، والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختصّ العطيّة والعطاء بالصّلة[3]، ويعبَّرُ بـ (الإيتاء) عن الإعطاءِ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النّساء: 163][4]، فعبّر بالإيتاء؛ لأنّه لا يدلّ على كونه عطيّةً أو صلة، بل هو محضُ تفضُّلٍ؛ لأنّه إيتاء بسهولة تفضّلًا من اللّه تعالى.

الإيتاء أدلّ على الامتنان من الإعطاء

دلالة نون العظمة في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

أسند الفعل (آتى) إلى نون العظَمة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾؛ للدِّلالة على علوِّ هذا الإيتاء وعظيم أثره في استنقاذ أهل الكتاب من الضَّلال.

عظيم أثر ما أوتيه أهل الكتاب، في استنقاذهم من الضَّلالِ

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبَّر القرآن الكريم عن أهل الكتاب في هذه الآية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ للإشارة إلى أنّ الكتاب الّذي عندهم إنّما هو نعمة من اللّه تعالى حصلت لهم بسبب إيتاء

تخصيص العلماء من أهل الكتاب بالذِّكر الجليل، تعظيم لمقامهم الأثيل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/164.
(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أتي).

اللّه تعالى لهم تفضُّلًا منه، وفيه دلالة على أنّ المُراد بهم العلماء، أمّا أهل الكتاب فيصدق على الجميع حيث يشمل العلماء وغيرهم، وفيه إشارة إلى مدحهم لفرحهم بما أنزل اللّه على رسوله من القرآن.

سِرُّ التخصيص في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

انتفاع المُنزل عليهم الكتابُ، من بني إسرائيل، من أولي الألباب

خَصَّص القرآنُ الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من بني إسرائيل دون غيرهم؛ لأنهَّم هم المنتفعون بالكتاب، فكأنّه ما أُنزل إلّا إليهم.

دلالة التَّعبير بجملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

استعمال (آتَيناهُمُ) يُنبِئ عنِ الإكرام، و(أوتوا) قد تكون لذمّ اللّئام

آثر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون (أوتوا الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في هذا السّياق أبلغ من (أوتوا)؛ فهو يُنبِئ عن الإكرام، وذلك من دلالة نون العظمة، كما هو مُستعمل في مواطنَ من القرآن، تدُلُّ كلُّها على الإكرام، نحو: ﴿هَدَيۡنَا﴾ [الأنعام: 84]، و﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ [مريم: 58] و﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ [فاطر: 32]. ولأنَّ (أوتوا) قد يستعمل في مواطنَ يُذَمُّ فيها أهل الكتاب، كقول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ [النّساء: 47] الآية.

فالمُلاحَظ أنَّها جاءت في موطن الذَّمِّ لهم، بخلاف الفعل (آتيناهم)، فهو في موطن العطاء والإكرام، كما قال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89] في سياق حديثه عن الأنبياء عليهم السلام.

العلم طريق للإيمان، ووسيلة للفهم والاطمئنان

سرُّ التَّعبير بالكتاب ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبّر النّظم الجليل بـ (الكتاب) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾، وذلك للتّصريح بأنّ

معرفتهم الإيمانَ الحقّ وفرحهم بالمؤمنين إنّما هو بسبب ما لديهم من كتاب، وإشارة إلى أنّ ما صدر عنهم من فرح بسبب ما لديهم من علم تعلّموه من الكتاب. وفيه ترغيب لهم للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ مصدر التَّوراة والإنجيل والقرآن واحد؛ لذلك عبَّر عن كلٍّ واحد منهم بالكتاب.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

دلالته على الإيمان مع السُّرور، والفرح بالمُنزل، دليل الإيمان الأكمل

عبّر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ بالفرح دون الإيمان، تعبيرًا عن استقبالهم الكتاب بفرح وسرور؛ لأنّه يوافق الموعود الّذي كانوا ينتظرونه[1]، مع تضمّنه الدّلالة على الإيمان، فلم يفرَحوا إلّا لأنَّهم آمنوا، فعبّر بالفرح دلالةً على الإيمان مع السّرور، وكان سرورهم وفرحهم لكونهم وافقوا الزّمان الّذي حلّ فيه المُنتَظَر، فهم قد وجدوه مُطابقًا مُصدّقًا للبشارة في التّوراة والإنجيل بالنّبيّ ﷺ.

وفيه إشارةٌ إلى إبراز الحالِ الّتي تظهر على وجوههم حبًّا وإيمانا بالمُنَزَّل، يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83] في حقِّ النَّصارى، ومع اليهود أيضًا ورد قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، وهذا يعني أنَّهم كانوا يتشوَّفون لبعثة الرَّسول ﷺ[2].

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

تجدّد الفرح بنزول القرآن، لأنّه وسيلة تجديد الوصل بالرّحمن

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ تعبيرًا عن تجدّد فرحهم بنزول القرآن، واستمرار اغْتِباطهم بتصديق القرآن لِما بين أيديهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

دلالة التّعبير بـ ﴿بِمَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾:

الثّناء عليهم بعموم إيمانهم بالمُنزَل، على النّبيّ المرسل

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ (بما) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ للدّلالة على أنّ فرحهم كان عامًّا بكلّ ما نزل، بناءً على أنَّ المُراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أهل القرآن؛ فهم يفرحون بكل ما أُنزل على الرَّسول ﷺ فيما يتعلَّق بالتَّوحيد والنُّبوَّة والبعث والأحكام والقصص. وأمّا على القول بأنَّ المُراد بالموصول: الّذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، ونحوهِ، ومَن أسلم من النَّصارى وهم ثمانون رجلًا؛ فيكون المُراد بـ ﴿بِمَآ﴾ العموم أيضًا. ولو قال: (بالّذي أُنزل إليك)؛ لاحتملت دلالة العهد، ويكون المُراد إيمانَهم بالذي كان قد نزل؛ أيْ: بجزء معهود معروف من القرآن، لكنّ التَّعبير بـ (ما) الدّالة على العموم يفصح عن كون إيمانهم شاملًا لكلّ ما جاء في القرآن الكريم.

أمّا إذا حُمل اسم الموصول على مُطلق أهل الكتاب؛ فلا تدلُّ على العموم؛ لأنَّه معلومٌ أنَّهم لا يفرحون بكلِّ ما أُنزل إلى الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه يحمل في بعض الأحيان ما لا يوافق هواهم، بل ويُبْكِتُهم على ما وقعوا فيه من أخطاء شِركيَّة وعباديَّة[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾:

الإيمان بمُطلق الإنزال للقرآن، من متين الإيقان

عبّر النّظم الكريم بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ دون (نزّل) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ لأنّ المُراد بيان إيمانهم بالقرآن من حيث هو قرآن أُنزِلَ على رسول ﷺ، من غير الحاجة إلى معنى التّكثير الّذي هو مدلول (نزّل) الّذي يُفسَّر بالتّدرّج وطول زمان التّنزّل، فكان التّعبير بـ (أُنزِل) أبلغ في هذا الموضع.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ يدلُّ على مطلق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58.

الإنزال فقط، ولذلك يَرِدُ استعماله غالبًا في نزول الكتب السَّماويّة على العموم، يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: 47]، أمّا التَّعبير بـ (نَزَّل) فإنَّه يأتي في سياق الرَّدِّ على الكافرين الّذين يُنكرون نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

دلالة بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الإنزال بالفعل المَبنيِّ للمفعول في قوله تبارك اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ اهتمامًا بالمُنَزَّل وتعظيمه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حذف الفاعل المعلوم بالضّرورة آلة من آلات الإيجاز، وتأدية المعنى بأقلّ العبارات، "ولمّا كان المُنزَل دالًّا بإعجازه على المُنْزِل؛ بُني للمفعول"[1].

العلم بالفاعل يُتيح الإيجاز في التّعبير عنه، بما يُفهم من السّياق

دلالة تَعَدّي الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى):

تَعَدّى الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ دون (على) مع أنَّ النّاظر في القرآن الكريم يجد تنوُّع الاستعمال القرآنيّ بينهما في مواضع متعدّدة، واختير الحرف الّذي تعدّى به الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لمعنًى دقيقٍ يناسب السّياق، ومن ذلك ما ورد في هذه الآية؛ حيث تعدّى بـ (إلى)؛ لأنّها تدلُّ على انتهاء الغاية، والمُراد: انْتهاء التَّبليغ إلى أمَّة الدَّعوة، أمّا التَّعدّي بـ (على)؛ فإنَّه يُشير إلى النُّزول من جهة العُلوِّ، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم.

دقّة النّظم القرآنيّ في التّصرُّف في حروف المعاني، من رفيع البيان

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

صُدِّرت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، بالواو العاطفة، عطفًا على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

عطف المُنكرين على المؤمنين من أهل الكتاب، وتخصيص كلٍّ بأوصافه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/355.

ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1]، فَهُمُ القسمُ الثّاني من أهل الكتاب الّذين ورد السّياق لبيان انقسامهم في شأن القرآن؛ أيْ: "ومن جماعتهم الّذين تحزّبوا وتألّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، - ككَعْبِ بنِ الأشرف، والسّيد والعاقب أُسْقفَي نجران وأشياعهم - مَن أنكر بعضَ القرآن؛ وهو ما لم يوافق ما حرَّفوه من كتابهم وشرائعهم"[2].

دلالة تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

إنكار بعض القرآن، ليس مقصورًا على أهل الكتاب، بل يعمّ كلّ مُعتقد بذلك

قدّم النّظم الجليل الجارَّ والمجرور على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ ليستقيم المعنى؛ إذْ لو جاء على الأصل فقال: (ومَن يُنكر بعضَه مِن الأحزاب)؛ لدلّ على أنّ كلّ مَن أنكر بعضَ القرآن هو من الأحزاب فَحَسْبُ؛ لأنّ اسم الموصول (مَن) يدلّ على العموم، فقدّم حرف الجرّ الدّلّ على التّبعيض ليعلم أنّ العموم في الاسم الموصول باقٍ على عمومه.

دلالة اللّامِ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

خلافات أهل الكتاب مزّقتهم فِرَقًا، وتحزّبهم أذهبهم أشتاتًا

عرّف النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، باللّامِ الدّالّة على العهد؛ لأنّه أراد جماعة معلومة مخصوصة منهم[3]، والأحزاب هنا تعني "أحزابَ الّذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [مريم: 37]؛ أيْ: ومن أحزابهم مَن يُنكر بعض القرآن، فاللّام عِوضٌ عن المضاف إليه"[4].

سرُّ التّعبير بالجمع ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

أهل الباطل فرقٌ وجماعات، اختلفوا فمُزّقوا كلّ مُمزّق

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، عبّر عن الأحزاب بالجمع؛ لأنّهم في الواقع أكثر من جماعة، فاليهود منهم

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/141 - 142.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/112.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

"يريدون أن يُنزل ما يوافق فروع التّوراة كما أُنزل ما وافق الأصولَ، ويُنكرون النّسخ، وأهل الإنجيل يريدون أن يُنزل في المسيح ما يَهْوَوْن، ونحو ذلك"[1]، فلمّا كان إنكارهم مُتعدّدًا صاروا أحزابًا كثيرة، فعبّر عنهم بالجمع لذلك، وفيه ذمٌّ لهم؛ إذْ إنّ الله تعالى أنزل ما يجعلهم أمّةً واحدةً، ولكنّهم تفرّقوا أحزابًا لمّا جاءهم العلم الّذي كان ينبغي أن يوحّدهم.

سرُّ التّعبير في لفظ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾:

التّعصُّب للباطل أمرٌ مذموم، يُفضي إلى المساءة واللّوم

عبّر النّظم الكريم عن أهل الكتاب بـ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ إيماءً إلى أنّهم كانوا مُتحزّبين مُتصلّبين لقومهم، ولِما كانوا عليه مِنْ عاداتٍ وعباداتٍ[2]، وهذا ذمٌّ لهم؛ إذْ لا يتحزّب المؤمنُ إلّا لِلحقّ.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يُنكِرُ﴾:

عموم أهل الكتاب أنكروا القرآن، وتطاولوا عليه بالإفك

عبّر النّظم الجليل عن مُنكري القرآن من الأحزاب، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، بالاسم الموصول (مَن) الدّالّ على العموم؛ لأنّ أكثر أهل الكتاب فعلوا ذلك، فعبّر عنهم بلفظٍ دالٍّ على العموم، أمّا الّذين آمنوا فعبّر عنهم بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ﴾؛ لأنّهم قوم معروفون معدودون.

سرُّ العدول في الآية:

إنكار بعض القرآن يدلُّ على انتفاء الإيمان، وإنكار البعض كإنكار الكلّ

عدل النّظم الكريم عن التّعبير عن كفرهم إلى ذِكر الإنكار في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، فلم يَقُلْ: (ومن الأحزاب مَن لا يؤمن ببعضه)؛ تصريحًا بعلّة انتفاء إيمانهم، وهو كونهم ينكرون بعضَه، وهذا أكثر إيجازًا ممّا لو جاءَ النَّظْمُ القرآني: (لا يؤمنون ببعضه)؛ إذ لا يدلّ على سببِ كفرهم، وعليه فالتّعبير

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

بالإنكار عن انتفاء إيمانهم تعبير بليغ؛ لِما فيه من الإيجاز. ولأنَّ هذا التَّعبيرَ هو الأوفقُ بالمقام؛ لأنَّ إنكارَ بعضِهم هو مِن باب العناد والكِبْرِ؛ لِمُخالفَتِه ما هُم عليهِ مِنَ الأهواء.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡضَهُۥۚ﴾:

إنصاف القرآن في عرض واقع المُنكِرين، وبيان افترائهم على الدّين

جاء التَّعبير القرآنيُّ مُشيرًا إلى أنَّهم يُنكرون بعضَه لا كُلَّه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ لأنَّه ورد في القرآنِ إثباتُ وجودِ الله تعالى وعلمِهِ وقدرته وقصص أنبيائه، والأحزاب ما كانوا يُنكرون ذلك؛ لموافقة القرآن لكثير من أصولهم، وهذا من عدالة القرآن وإنصافه؛ إذْ لم يُحَمِّلْهم جُرمًا أكثر من جُرمهم، فَهُم لم يُنكروا ما جاء في القرآن موافقًا لمعتقدهم، فكان إنكارهم موجّهًا لِما خالفهم بالاعتقاد، فهو إنكار لبعضه، فمن الإنصاف والعدالة ومن مطابقة الواقع أن يُعبّر عن إنكارهم بأنّه واقع على بعض القرآن، وهذا من دأب القرآن في الإنصاف.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُنكِرُ﴾:

تجدُّد إنكار المعاندين لِما يخالف أهواءَهم، ممّا شاع في كلّ الرّسالات

دلَّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُنكِرُ﴾ على تجدُّد حالات الإنكار، عند هؤلاء الأحزاب، فكلَّما نزل أمرٌ في القرآن يوبِّخُهم على كفرهم وعنادهم وشركهم؛ أنكروه واتَّهموا رسول الله ﷺ فيما أُنزل عليه.

دلالة فَصْل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾:

تصدير الجملة بفعل القول للرّدِّ عليهم، كافٍ في ترابط الجمل في السّياق

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، جاءت بلا عاطف؛ لكونها مفتتحة بفعل القول، فهي مذكورة بعد ذِكر الأحزاب الّذين يُنكرون بعض القرآن أمرًا للنّبيّ ﷺ بأن يردّ إنكارهم[1]، فالتّرابط بين الجمل حاصل؛ لِما بين الكلامَيْن من صِلَةٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾:

الآية جامعة لما يصلح به أمر المبدأ والمعاد، في التّشريع والاعتقاد

من أساليب التَّعبير القرآنيّ (الإيجاز)، وهو جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة، وهذا ظاهرٌ في هذه الآية؛ حيث جمع كلّ ما يحتاج إليه المرء في معرفة المبدأ والمعاد وفي التَّكليفات والتَشريعات، فَكُلُّ لفظةٍ فيها تَحْمِل من الدّلالات الكثيرة؛ فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جامعٌ لكلِّ ما ورد التَّكليف به، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ إشارةٌ إلى نبوَّته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ إشارةٌ إلى الحشر والبعث والقيامة[1].

بلاغة التَّعبير بالقصر في الآية:

حصرُ الأمر بالعبادة، دلالة على التّوحيد

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملة، فقصر الأمر على عبادة الله تعالى وحده، "والمُراد: قصرُ الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصرُ الأمرِ مُطلقًا على عبادته تعالى خاصَّةً؛ أيْ: قل إنّما أُمرتُ فيما أُنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده"[2]؛ أيْ: إنّه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنّه لم يُؤمرْ بذلك فَحَسْبُ، بل أُمر بأوامرَ كثيرةٍ، ولكنْ قُصِرَ الأمرُ هنا بالنّظر إلى ظنّ المشركين، وهو قصر موصوفٍ على صفةٍ؛ لأنّه قصر كونه مأمورًا بصفة العبادة، والتّعبير بأسلوب القصر عن ذلك يُفيد تقويةَ المعنى والتَّأكيدَ عليه.

دلالة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾:

الصّدع بالحقّ، ورفع العقيرة بالقول، من شأنه أن يُؤكّد صدق القائل

أمر الله تعالى رسوله بالرَّدِّ على المنكرين إنكارَهم، لبعض ما أنزل به القرآنُ، بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، وهو إعلانٌ منه ﷺ بعبادة الله وحده، ونفي الشِّرك، وفي هذا ردٌّ على المُنكِرين ما كانوا يعتقدونه من الشُّركاء مع الله تعالى، وفيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/166.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

إشارة إلى إعلان رسالته ﷺ، أمام هؤلاء المُنكِرين، صادِعًا بالحقِّ غير مُكْتَرِثٍ بإنكارهم لبعضِ ما أُنزل من القرآنِ[1].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ﴾:

الأمر أدلُّ على الإلزام والإيجاب، لعبادة مَن له الأمر والمآب

آثَر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأمر، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، دون غيره، وذلك للدّلالة على أنّ المأمور به وهو العبادة جاء على الوجه اللّازم القاطع، الّذي لا يعتريه الشّكّ ولا التّغيُّر؛ لأنّه ممّن له الأمر كلّه، وهو الله تعالى[2].

سرُّ بناء الفعل ﴿أُمِرْتُ﴾:

تعظيم العبادة لله سُبحانَهُ، تحقيق بالعبوديّة، لما يستوفي عطاءَهُ وإحسانَهُ

جاء التَّعبير عن الأمر بالعبادة بالفعل المبنيِّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه ﴿أُمِرْتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ تنويهًا بفخامة الآمر سبحانه، وفيه إيجازٌ في التّعبير، وذلك اعتمادًا على ما لا يُجهل العلمُ به، وهو كون الآمر إنّما هو الله تَعالى، فلم يُصرّح به إيجازًا لظهور المعنى؛ ولكَونه سَيُذْكَرُ في الجملة بعدها: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾:

استمرار العبادة على الدّوام، تحقيق لأمر الله ذي العطاء والإنعام

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، دون المصدر الصَّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ للدّلالة على أنّ المأمور به هو دوام العبادة وتجدّدها واستمرارها؛ أيْ: إنّ الأمر بالعبادة كائنٌ على وجه الدّوام.

سرُّ الأمر بالعبادة ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾:

الطّاعة لله تعالى ولغيره، أمّا العبادة فهي مخصوصة بالله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العبادة دون الطّاعة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّ الطّاعة تكون لله تعالى ولغيره، ولأنّ الشّركَ وقع بالعبادة، فجاء السّياق للرّدّ على الشّرك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/165.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.

بأنْ جَعَلَ العبادةَ للّه تعالى على سبيل الفرض والأمر والحَتْم، فـ "المأمور به تخصيص العبادة به تعالى"[1]، وعلى هذا فالعِبادة أعمُّ من الطّاعة؛ لِما تحمله مِن معنى التّعظيم، وللإشارة إلى أنَّ عبادة اللّه تَعالى لا تكون إلّا بِما شرعه، ولأنَّ العبادة للّه واجبة، بخلاف الطّاعة إذا كانت لغير اللّه؛ فقد تكون واجبةً وقد لا تكون كذلكَ.

دلالة التّعبير بالاسْمِ الأعظم (الله):

العبادة استحقاق لجلال الله تَعالى، يختصّ بها دون سواه

آثَر النَّظم الكريم التّعبير بالاسْمِ الأحسنِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرّب) في سياق العبادة؛ تفخيمًا لشَأن العبادة؛ أيْ: أُمرت أن أعبد اللّه الّذي لا شيءَ مثلُه وحده دون ما سواهُ[2]، وتعليقُ العبادة بالاسمِ الأحسنِ (اللّه) دون (الرّبّ) إشعارٌ بأنّ اللّه ﷻ مُستحِقّ للعبادة لا من حيث كونه رازقًا أو خالقًا أو مُنعمًا على عباده، بل إنّ العبادة واجبةٌ له لِذاتِه الجليلة.

دلالة الإتيان بنفي الشِّرك:

التّدرّج في الجدال، منهج منطقيّ معلوم، يُؤتي أُكُله في إلجام الخصوم

أعقب النّظم الكريم الأمر بالعبادة بالأمر بالامتناع عن الشّرك في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، وذلك على طريقة الجدل القرآنيّ الّتي راعت التّدرّج، فلمّا ذكر شأن العبادة بأنّها للّه تعالى، ولا ينازع أحدٌ من أهل الكتاب في ذلك ولا المشركين، فتدرّج بأنْ ذَكَرَ بعد ذلك ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ إبطالًا لشرك المشركين وتعريضًا بالنّصارى[3].

دلالة الجمع بين الأمر بالعبادة:

عبادة اللّه سُبحانَهُ، ونبذ عبادة غيره هو عين التّوحيد

جمع النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ بين الأمر بالعبادة والامتناع عن الشّرك؛ للدّلالة على توحيد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

اللّه سُبحانَهُ، فإنَّ المأمور به هو مجموع العبادة وعدم الإشراك، ومآل المعنى أنّي ما أُمِرْت إلّا بتوحيد اللّه تَعالى[1].

سرُّ نفي الشِّرك دون الكُفْرِ:

آثر النّظم الكريم التّعبير بنفي الشّرك دون نفي الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لمّا ثبت إيمانُه ﷺ بكونه مرسلًا من اللّه تعالى، فاقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا إيمانًا يقينيًّا بحيث لا يمكن أن يتطرّق إليه وصف الكفر، ولمّا قد حدث عند النّصارى من أنّهم قد جمعوا بين الإيمان والشّرك؛ بادَرَ بنفي الشّرك عن الإسلام؛ ليصرّح بأنَّ دينَه بُني على التّوحيد.

الـــرَّدُّ عـلى الـنّـصـارى، لـجـمـعـهـم بـين الإيـمـان والـشّـرك، في المعتقد والممارسة

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

عبّر النّظم الكريم عن نفي الشّرك بنفي الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فانْتِفاء الشّرك ينبغي أن يكون ثابتًا راسخًا متجدّدًا، لا يزول بزمنٍ ما.

نفيُ الشّرك على سبيل التّجدّد والـدّوام، من مـأمـورات الـلـه للأنام

سرُّ عدم ذكر فعل الأمر في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

لم يكرّر النّظم البليغ الفعل ﴿أُمِرۡتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، فلم يَقُلْ: (وأُمرتُ ألّا أشرك به)؛ إذ لو كُرِّر الفعلُ؛ لدلَّ على أنّ الأمرَ بالامتناع عن الشّرك أمرٌ مستقلٌّ، والسّياق لا يريد ذلك؛ إذ إنّ السّياقَ في الأمر بعبادة اللّه تعالى وحده، ولذا أتبعه بمزيد بيان؛ بأنّ العبادة كائنة للّه تعالى وحده، فالامتناع عن الشّرك في السّياق تابع للأمر بالعبادة، لا أمر على وجه الاستقلال.

الـسّـيـاق في تـوحـيـد الـلـه بالعبادة، تأكيد لنفي الإشراك

سرُّ فصل قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، استئناف بيانيّ للجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ "أيْ: أن

الـدّلالـة على رسالة التّمام، ودعوة الختام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك؛ لأنّه لمّا أُمر بذلك من قِبل الله، استُفيد أنّه مرسل من الله، فهو مأمور بالدّعوة إليه"[1].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾:

التّخصيص في السّياق، مُفصح عن المعنى المُراد

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدّلالة على التّخصيص، فالدّعوة منحصرة في الدَّعوة إلى الله تعالى لا إلى سواه، والمرجع يوم القيامة ليس لأحد إلّا لله تعالى؛ أيْ: "إلى الله تعالى خاصَّة على النَّهج المذكور من التَّوحيد، أو إلى ما أُمرت به منَ التَّوحيد أدْعو النّاسَ لا إلى غيره، ولا إلى شيءٍ آخرَ مما لا يطبق عليه الكتبُ الإلهيَّة والأنبياء ﷺ، فما وجه إنكاركم؟"[2].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَدۡعُواْ﴾:

العبادة والتّوحيد منهج دعوة وسبيل إلى الله تعالى

ذَكَر النّظم الكريم الدّعوة إلى الله تعالى بعد الأمر بعبادته، فقال جلّ ذِكرُه: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾، والمُراد من ذلك: بيان أنّه كما "وجب عليه الإتيان بهذه العبادات؛ فكذلك يجب عليه الدّعوة إلى عبودية الله تعالى"[3]، كما يُشير ذلك إلى أنّه ﷺ يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، وهذه مُهمَّة رسالتِهِ ﷺ الّتي تقدَّم ذِكْرُها في صدر الآية، وهي مُهمَّةُ الرُّسل ﷺ من قبله، فَقَدْ أُمِروا بهذه الدَّعوة، وفيه إشارة إلى حثِّ العلماء والدُّعاة على التَّخلُّق بهذا الخُلُقِ؛ لأنَّهُم ورثةُ الأنبياءِ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾:

الدّعوة إلى الله تعالى هي وظيفة الرَّسول الأكرم الأساسيّة

آثر النّظم البليغ التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الدّعوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/48.

واستمرارها، وفي ذلك إعلان بأنّ النّبيّ ﷺ لا يشغله شاغل عن هذه الدّعوة الّتي ينهجها كلّ زمان ومكان فلا ينفكّ عنها، وفي ذلك تَيْئِيسٌ للمشركين بثباته على ذلك، وفيه تحذيرٌ لأهل الدَّعوة إذا هُم أهملوا الاستمرارَ في دعوة النّاس إلى توحيد اللّه وعبادته؛ لأنَّهم بذلك يتخلَّفون عن رَكْبِ الخيريَّة في الأمَّة.

دلالة الواو في: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾:

إعـلان الرّجـوع إلى الله تعالى، من تمام الدّعوة إليه

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ معطوفة بالواو على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾؛ لكونهما مشتركتيْن بالمقول، فهما في حيّز فعل القول[1]، فكما صرّح بكونه مأمورًا بإعلان دعوته إلى اللّه تعالى؛ فكذلك يُعْلِنُ بأنّ مرجعَهُ إلى اللّه تعالى.

سرُّ التّعبير بلفظ (المآب) في الآية:

المـــآب إعـــلانٌ مؤكّد بالرّجوع إلى الله تعالى

آثر النّظم الجليل التّعبير بالمآب، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ دون المرجع؛ لأنّ المآب مصدرٌ ميميٌّ على وزن (مَفْعَل)، وهو دالٌّ على الرّجوع على وجه المبالغة؛ لأنّ الأصلَ في المصادر الميميّة أنّها أسماءُ زمان جُعلت كنايةً عن المصدر، ثمّ شاع استعمالُها حتّى صارت بمنزلةِ المصدر الصّريح[2].

وممّا يُذكر في سرِّ التّعبير به: أنَّ المآب لا يُراد منه الرُّجوع فحسبُ، وإنَّما يُراد المُنقلَب الّذي يَنْتَهي إليه ابنُ آدم؛ إمّا إلى جنّة وإمّا إلى نارٍ، فمثال منقلَب أهل الجنَّة قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]، ومثال منقلب أهل النّار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: 55][3].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) محمد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآني، ص: 232.

بلاغة الختام في ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾:

عبّر النّظم الكريم في ختام الآية بقوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ الدّالّ على أنّ المرجع إليه وحده يوم القيامة للجزاء[1]، فجاء قولهُ في الختام للدّلالة على أنّ ما وراء العملِ والعبادة والدّعوة إليه، وما وراء الشّرك به: راجعٌ إليه ﷻ؛ وهو سيحاسب العباد للجزاء، وفي ذلك تحذيرٌ للمشركين والنّصارى بتَذْكيرهم بيوم القيامة الّذي سَيُحاسبون فيه على ما اقترفوه من الشّرك.

التّذكير بيوم الحساب، أبلغ في التّنبيه والتّحذير للمُتمادينَ في الشّرك

سرُّ الاختلاف في فاصلة الآية:

اختلفت فاصلة هذه الآية عمّا قبلها؛ حيث خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، والسّابقة خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾، وذلك لاختلاف المُتَحدَّث عنهم في الآيتيْن، فالأولى كانت في شأن الكفّار الّذين قال الله فيهم: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: 30]، وكفر هؤلاء لا يُغفر إلّا بالتّوبة إلى الله تعالى، ولذلك كان مناسبًا أن يُرْشِدَهُم القرآنُ إلى وسيلة الخروج منَ الكُفْر، وذلك يكون بالتّوبة إلى الله تَعالى، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾، أمّا الثّانية فهيَ في شأن أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والمقام هنا يُناسبه المآبُ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ رجوعهم إلى الله أمرٌ حتميٌّ للمجازاة على ما قُدِّم.

يختلف اللّفظ باختلاف الجهة المتكلّم عنها، ومقتضى الحال، في تعبير المقال

سِرُّ حذف ياء المتكلّم في ﴿مَـَٔابِ﴾:

أوْجَزَ بليغُ النّظم بحذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ إذْ أصلُ ﴿مَـَٔابِ﴾: مآبي بالإضافة إلى ياء المتكلّم، وقد حُذِفَت الياء تخفيفًا، وأُبقيتِ الكسرةُ دليلًا على المحذوف[2]، كما أنّ ذلك الحذفَ يحقّق التّماثل الصّوتيَّ في الفاصلة الّتي تَبْلُغُ في التّأثير المدى الأقصى بانْسِجامِها الصّوتيّ مع خواتيم الكلام السّابق واللّاحق.

الحذف أخفّ لفظًا، وأوجز عبارة، وأنسب فاصلةً

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

المُتشابه اللّفظيّ في الآية:

دقّــة البـيـان الــقــرآنيّ، في اسـتـعـمـالِ كُـلِّ لفظة، في سياقها الملائم لها

تشابه قوله جلّ شأنه في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ مع قوله تعالى من سورة النّمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النّمل: 91]، فيُلاحَظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، فلمّا كان السّياق مُتعلّقًا بالرّسول ﷺ، ناسبه ذِكر ﴿قُلْ﴾، ولمّا كان مِن أبرز ما يُنكره هؤلاء توحيدُ الله تعالى؛ ناسبه قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾. أمّا الآية في سورة النّمل فيسبقها قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النّمل: 89 - 90]؛ فلمّا كان الإخبار من الله مباشرة، ناسبه عدم ذكر (قل)، ولمّا كانت هذه تربية من الله لعباده، وتقدّم قوله: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النّمل: 82]، وكانت هذه الدّابّة تخرج من مكّة بلد الله الحرام؛ ناسبه قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 91].

أمّا التّشابه مع سورة الزّمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزّمر: 11]، فَلِمَ خُصّت الآية في سورة الرّعد بـ (إنّما)، وبقوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، وآية الزّمر بـ ﴿إِنِّىٓ﴾ [الزّمر: 11] وبقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزّمر: 11]؟ والجواب عن هذا أن نقول: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ فلمّا كان الأحزاب منكِرين لبعض الكتاب، وعلى الأخصّ توحيدَ الله تعالى، وأريد تأكيد الخبر بما يفيد التّعريض بما هم فيه من الشّركِ بالله؛ ناسبه ذِكر

﴿إِنَّمَآ﴾ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، ولمّا كان مَن يعبد الله تعالى قد يُشرك معه غيره؛ ناسَبَه قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾. أمّا الآية في سورة الزّمر فيسبقها قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزّمر: 2]، فلمّا أراد الله تعالى أن يُعلّم رسوله ﷺ الامتثال لأمره، وأن يكونَ قدوةً صالحة للّذين آمنوا؛ ناسَبَه قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزّمر: 11].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الدّعاء والنّداء:

النّداء مُختصّ برفع الصّوت، والدّعاء برفع الصّوت وخفضه وبالسّر

الفرق بينَهما: أنَّ "النِّداء هوَ رفع الصَّوْت بِما لَهُ معنًى، والعربيّ يَقول لصاحبه: نادِ معي؛ ليَكون ذَلِك أندى لصوتنا؛ أيْ: أبعد لَهُ، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه، يُقال: دَعوته من بعيد، ودعوتُ الله في نَفْسي، ولا يُقال: ناديته في نَفسي، وأصل الدُّعاء طلب الفِعْل"[1]، وأوثِر التّعبيرُ بالدّعاء في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لَم يُرَد أنّ ذلك برفع الصّوت، بل بالعمل والطّلب مِنَ النّاس عبادته.

المآب والرّجوع:

الإياب أخصّ من الرّجوع؛ فهو رجوع إلى النّهاية

الإياب يختصّ بالرّجوع إلى النّهاية، فهو "الرُّجوع إلى مُنْتَهى المَقْصد، والرُّجوع يكون لذَلِك ولغيره؛ ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّريق، ولا يُقال: آب إِلَى بعض الطَّريق، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأنَّ القيامَة مُنْتَهى قَصْدِهم؛ لأنّها لا منزلَة بعْدها"[2]، وأوثِر التّعبير بالمآب في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّ السّياق في بيان كون النّهاية إليه ﷻ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 38.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»